# سيرة فدوى طوقان: سؤال الهوية وجذور الوعي النسوي. دراسة نقدية في السيرة الذاتية لفدوى طوقان: (رحلة جبلية) و(الرحلة الأصعب)

**أ.د. حسين لفته حافظ***

**د. عباس عبد الحليم عباس****

## الملخص

لا تزال سيرة فدوى طوقان بجزأيها (رحلة جبلية.. رحلة صعبة) و(الرحلة الأصعب) من أبرز السير الذاتية النسوية في الأدب العربي التي كشفت كثيرًا عن قضايا المرأة العربية وهمومها، ضمن مجتمع ذكوري بطريركي أحاط المرأة بأسوار القسوة والتعسف، انتقدته فدوى بشدة، محاولة تلمس هويتها وكينونتها الأنثوية في مثل هذا السياق. وهو ما تتبعته الدراسة الحالية، وحاولت كشف ملامحه... فضلًا عن محاولة إيجاد البواعث الذاتية والموضوعية وراء كتابة فدوى طوقان لسيرتها الذاتية، وتأمل نقاط التلاقي بين آراء فدوى ومقولات النقد النسوي، ونقاط الافتراق والاختلاف في الوقت ذاته.

* العراق، جامعة الكوفة، مركز دراسات الكوفة.

** الأردن، الجامعة العربية المفتوحة.

# The Autobiography of Fadwa Touqan, the Question of Identity an the Origins of Feminist Conscienseness: a Critical Study: the *"Mountainous Journey" –and the "More Difficult Journey"*

**Prof. Hussein, a gesture by Hafez***
**Dr. Abbas Abdel Halim Abbas****

## Abstract

The autobiography of Fadwa Touqan is still one of the most prominent feminist autobiographies in Arabic literature, and it unveils many of the issues of the Arab women and their suffering within a patriarchal male-dominant society, which deals with women with extreme cruelty and arbitrariness. Fadwa Touqan criticized this situation severely, trying to prove her identity and femininity in this context. This is what the current study aims at presenting, while discovering features of Touqan's autobiography, and her subjective and objective impulses to write the autobiography. The current study also aims at reflecting the similarities between Touqan's opinions and the opinions of feminist critics as well as the differences between them.

* Iraq, University of Kufa, Center for Kufa Studies.
** Jordan, Arab Open University.

**المقدمة:**

لم يكن من السهل لفدوى طوقان أن تكتب سيرتها الذاتية بكثير من الانطلاق والجرأة والحرية، فمع أنه حق من حقوقها أن تكون ذاتًا/امرأة، تعبّر عن مشاعرها ومواقفها، إلا أنها في الوقت نفسه ابنة وطن سليب شغلت قضيته فضاء العالم وليس أبناءه فحسب، كما أن اشتراطات الكتابة السير –ذاتية النظرية لا تترك لأي كاتب سيرة–رجلًا كان أم امرأة– أن يتخلص من إرث الميثاق، الذي يفرض على الكاتب أو الكاتبة الالتزام بدلالة (سيرة ذاتية) التي يتم تثبيتها على غلاف الكتاب مما "يعطي انطباعًا بوجود اتفاق موقع عليه بين الطرفين"[1] على حد تعبير الفرنسي فيليب لوجون، أحد أبرز المنظرين لأدب السيرة الذاتية.

لكن الكاتبة والقارئ يتورط كل منهما في إرباك حقيقي، هي عند الكتابة، وهو عند القراءَة؛ وقد أشار سميح القاسم في تقديمه للسيرة الذاتية لفدوى طوقان بأن "رحلتها الجبلية .. رحلتها الصعبة لم تكن مجرد حياة أخرى؛ إنها نقيض العادي.. وهي شاهد ثقة على الانشطار الهائل بين الحلم الجامح من جهة، والواقع المعقّد من جهـــة أخرى"[2]

وهذا بحدّ ذاته يمثل عقبة ليست بالسهلة أمام كاتبة السيرة الذاتية تحديدًا، فالحلم لا تحده حدود، ولا يقف عند حواجز وأسوار، لكن الذات تصطدم بواقع الموضوع.. المجتمع.. الموروث... الممانعة... الأهل.. جراح الوطن.. إلخ

أما القارئ فهو دومًا يمنح نفسه حق القراءَة والتأويل، وقد أشار فيليب لوجون نفسه، وهو يتأمل إشكالية الميثاق في أدب السيرة الذاتية، إلى أنَّ هذا الميثاق "لا يمنع القارئ الواقعي من اختيار صيغ قراءَة مختلفة عن الصيغ المقترحة عليه"[3]

وهذا بحد ذاته يمنح النقد مساحة من التأرجح بين الواقعي والخيالي وهو يقرأ السيرة الذاتية، بما قد يؤدي أحيانًا إلى التباس نوعي يخص مسألة التجنيس كما يشير كثير من النقاد عند الحديث عن علاقة السيرة الذاتية بالأجناس الإبداعية والكتابية الأخرى، كالرواية والمذكرات واليوميات، والرسائل والحوارات، والاعترافات والشهادات، والخواطر وغير ذلك، وهذا محل خلاف نقدي معروف.

---

[1]– لوجون، فيليب: السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2011، ص: 12.

[2]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية.. رحلة صعبة (سيرة ذاتية)، ط2، دار الشروق، عمّان، 1985، ص: 5.

[3]– لوجون، فيليب: المرجع السابق، ص: 13.

**سيرة البحث عن الذات:**

تمثل سيرة فدوى طوقان الذاتية سيرة الحزن بأبعاده الذاتية والموضوعية، الحزن المتراكم المتداخل نتيجة عدم رضا عما يحياه مجتمع الحريم في مدينة، هي كالقرية لا أكثر ولا أقل، فضلًا عن كونه حزنًا ناجمًا عن إحساس إنساني بالنقص أو الحاجة إلى الآخر،" لقد اعترفت فدوى طوقان بأنها عاشت سنوات على حافة وعي الآخرين الطيبين، شقيقها إبراهيم طوقان وصحبه، ولم تجد بأسًا في الإفصاح عن نموذج تراثي تلبَّسها أو تلبّسته، فمثّل في لا وعيها آنذاك، صيغة ترضي الجانب الطيب في المجتمع الذكوري من جهة، ولا تهدد بخدش كبرياء الجانب الشرير في هذا المجتمع من جهة ثانية، إنه نموذج (دنانير) جارية يحيى البرمكي! تقول فدوى طوقان: "كنت أوقّع قصائدي الغزلية باسم (دنانير) وأبعث بها إلى مجلة (الأمالي) حينًا وإلى مجلة (الرسالة) القاهرية حينًا آخر. كانت كلمة الحب تقترن في ذهني بصورة الفضيحة والعار، فهذه هي الصورة التي طبعتها في نفسي البيئة المحيطة منذ الصغر"[4]

ولعلنا ندرك هنا غياب الحقيقة الذاتية واغتصاب الهوية، الذي تمارسه الثقافة الاجتماعية على المرأة لدرجة أنها تخفي اسمها الحقيقي، وكأنها تتواطأ مع المجتمع في إنكار ذاتها، هذه الذات التي أرادت لها (التربية) في مثل هذا المجتمع الذكوري أن تتدارى وتتوارى خلف (أقنعة) مزيفة لتظل الذات الحقيقية (عورة) لا يسمح لها بالظهور علنًا. وهنا تأتي هذه السيرة الذاتية لتعلن ما أسمته فدوى طوقان بـ (الحقيقة) وهي:

"أن الكفاح من أجل تحقيق الذات يكفي لملء قلوبنا وإعطاء حياتنا معنى وقيمة، لا ضير علينا لو خسرنا المعركة، فالمهم ألا ننهزم أو نلقي السلاح. إنّ قوى الشر، سواءً أكانت غيبية، أم اجتماعية أم سياسية تقف دومًا ضد الإنسان وتعمل على تحطيمه، ولكن الإنسان يقف أمام هذه القوى بكبرياء وعناء رغم ضعفه"[5]

ومن هذه الأرض، أرض المعركة، كما تسميها فدوى تنطلق الإرادة وينطلق الحلم... الإرادة التي تدفع بالمرأة إلى أن تكون (هي) والحلم الذي يقودها إلى آفق آخر، أفق مغاير في بيئة زمانية ومكانية تحجب كل أفق! الأفق الذي كانت تبحث عنه فدوى وربما ملايين النساء العربيات؛ "وكما يحدث في نطاق المجتمع، حيث تكون الرقابة المستبدة والقمع والقهر سببًا في خلق بنية تتركب من ثنائية الخضوع والتمرد معًا. كذلك يحدث

---

[4]- عبد الخالق، غسان: تأويل الكلام: دراسات تطبيقية في الشعر وأحوال الشعراء، ط1، دار أزمنة، عمان، 2007، ص: 41.

[5]- طوقان، فدوى: رحلة جبلية.. رحلة صعبة، ص: 9-10.

ضمن نطاق الأفراد. فالفرد الذي ينمو في مناخ الشرطة السرية والسلطة العائلية المستبدة ينشأ بتركيب نفسي هو مزيج من تلك الثنائية : الخضوع والتمرد"[6]

وهما شعوران أو سلوكان ينبغي التركيز عليهما في نقد السيرة الذاتية عمومًا والنسوية خصوصًا، وفيهما يقرأ الناقد المتفحص البنيات الثقافية والتربوية والاجتماعية والنفسية لكتابة السيرة . ويمكن عد هذين الشعورين أبرز مظاهر إرباكات الهوية عند المرأة العربية، ويزداد الأمر تعقيدًا حين نواجه احتيالًا من الكاتبة تتوسل به لإخفاء حقيقة هذا (التمرد) أو جزء منها، إذ لا يرغب القارئ –وهو يبحث عن المغاير والخفي– أن يصاب بشيء من خيبة الأمل، ولا سيَّما أن (الميثاق) عند "نشر سيرة ما أو الإعلان عنها بوصفها سيرة، وليس رواية، هو إعلان عن حقائق موثوق بها، وأول ما يدين به كاتب السيرة لقرّائه هو الحقيقة. إذ لا يحق له أن يبني شخصية البطل وفقًا لحاجاته ورغباته، ولا يحق له أن يختلق محادثات وأحداثًا، وأن يطمس حقائق معينة لا تنسجم مع تكوينه النفسي.

غير أنّ بوسع كاتب السيرة في حالات معينة يتفق فيها اختياره مع مزاجه، أن يعبّر عن بعض مشاعره دون تشويه مشاعر بطله"[7] وفي مثل هذه الحالات يلجأ الكاتب إلى التلويح والتلميح، وإخفاء هوية أبطاله في أحايين كثيرة، والاكتفاء بالرمز لهم بحروف معينة، فعلى سبيل المثال نقرأ عند فدوى شيئًا من هذا الترميز: "وكان شقيق الروح AG جنة لقيت في ظلها الهدوء والسلام، والراحة والسكينة. إنسان مؤنس، وديع بجانبه كان يغيب شعوري الدائم بأني قد أُلقي بي في عالم أقوى مني. على أن شجنًا ناعمًا ظل يمازج سعادتي وأنا في ذلك الفردوس الأرضي، هكذا أنا دومًا، لا تكتمل السعادة في نفسي وشعوري، ففي أوج غبطتي يتسلل خيط رفيع من اللوعة ليسحب نفسه على مدى وجداني كله: أين أنا غدًا من هذه الجنة؟ لو يقف الزمن، لو أنني أملك الإمساك باللحظات الهاربة، اللحظات التي تتساقط قطرة قطرة من محيط الزمن لتتلاشى فيه وتندثر ثم لا تعود، لا تعود أبدًا.."[8]

ويمكن أن يكون هذا الحسّ الذي يعلي من موقع الشعور، ويرقى بالعاطفة وتجلياتها عند فدوى طوقان هو انعكاس واضح لطاقتها الشعرية، وما تتضمنه هذه الطاقة من إشراقات ذاتية، تستعين بها الشاعرة للتعبير عن إرباكات القهر الاجتماعي والنفسي والأسري، حيث تلجأ المرأة إلى الطاقة الشعرية الكامنة فيها– في حال كونها شاعرة

[6]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية، ص: 32.

[7]– موروا، اندريه: أوجه السيرة، ترجمة: ناجي الحديثي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، 1986، ص: 99.

[8]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية.. رحلة صعبة، ص: 202.

كفدوى–لتغرف منها في كتابتها السي– ذاتية. وقد مرّت فدوى بكثير من ظروف القهر النفسي والاجتماعي التي يمكن تلخيصها اعتمادًا على ما كتبه صبحي حديدي في دراسته المعنونة بـ: (الحداثة العاطفية: فدوى طوقان والريادة النسوية في الشعر العربي الحديث) وفيها يرصد جملة من الشروط التي خضعت لها طفولتها ويفاعتها، وكان لها أثر عميق سوف يلازم معظم محطات حياتها اللاحقة، وسيتكفّل بتكييف ميولها الحياتية إجمالًا، والإبداعية بصفة خاصة. فإلى جانب واقعة منعها من الذهاب إلى المدرسة بسبب استلامها رسالة غرامية من فتى مراهق، وأنها واصلت تعليمها–وخصوصًا في جانب التتلمذ الشعري– على يد شقيقها إبراهيم طوقان، داخل أسوار البيت العتيق المحافظ، الذي كانت ترى فيه" حظيرة كبيرة تملؤها الطيور الداجنة"[9] تقف في هذه السيرة على سلسلة من السياقات الاجتماعية والعائلية والنفسية التي تشخّصها طوقان كما يأتي:[10]

1– "خرجت من ظلمات المجهول إلى عالم غير مستعدّ لتقبّلي. أمّي حاولت التخلص منّي في الشهور الأولى من حملها بي. حاولت وكررت المحاولة، ولكنها أخفقت. عشر مرّات حملت أمّي، خمسة بنين أعطت إلى الحياة، وخمس بنات، ولكنها لم تحاول الإجهاض قطّ إلا حين جاء دوري. هذا ما كنت أسمعها ترويه منذ صغري"[11]

2– "لم تكن الظروف الحياتية التي عاشتها طفولتي مع الأسرة لتلبّي حاجاتي النفسية، كما أن حاجاتي المادية لم تعرف في تلك المرحلة الرضا والارتياح. وإذا كانت الطفولة هي المرحلة الحاسمة التي ترسم الشخصية وتقرّرها لما لها من أهمية في حياة الفرد، فإن طفولتي– لسوء الحظّ أو لحسن الحظّ– لم تكن بالطفولة السعيدة المدللة..."[12]

3–أمّا بُنيتي فكانت عليلة منهكة بحمى الملاريا التي رافقت سني طفولتي، وكان شحوبي ونحولي مصدرًا للتندّر والفكاهة وإطلاق النعوت الجارحه عليّ: تعالي يا صفراء، روحي يا خضراء".[13]

4–كنت أتلهّف للحصول على شيء غير الطعام، حلق ذهبي أو سوار أو فستان جميل ثمين أو دمية من دمى المصانع. كنت أتلهف للحصول على حبّ أبوي واهتمام خاص

---

[9]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية.. رحلة صعبة، ص: 60

[10]– حديدي، صبحي: الحداثة العاطفية: فدوى طوقان والريادة النسوية في الشعر العربي الحديث ضمن: كتاب جرش: فدوى طوقان بين قيد المرأة الشرقية وفضاء النص، مهرجان جرش، 2000، ص: 19.

[11]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية.. رحلة صعبة، ص: 12.

[12]– نفسه، ص: 18.

[13]– نفسه، ص: 18.

وتحقيق رغبات لم يحققاها لي في يوم ما (...) تُرى هل ربطت أمّي مقدمي إلى العائلة بالنحس الذي طرأ عليها، أعني إبعاد الإنكليز لأبي إلى مصر منفيًا عن عائلته ووطنه"[14]

5- "كان التصاقي بخالتي أكبر وأعمق من التصاقي بأمّي، كنت أتمنى دومًا لو أنني ابنة لخالتي وزوجها، وظللت أكره انتمائي إلى العائلة التي جعلني سوء الحظ واحدة من أفرادها، لقد كنت أفضّل دومًا الانتماء إلى عائلة أقلّ غنى وأكثر حرية".[15]

6- "وإذا كنت قد التصقت بخالتي أكثر من التصاقي بأمّي، فقد كان التصاقي بعمّي الحاج حافظ أشدّ وأعمق من التصاقي بأبي"[16].

7- "البيت أثري كبير من بيوت نابلس القديمة التي تذكّرك بقصور الحريم والحرمان، والتي هُندست بحيث تتلاءم وضرورات النظام الإقطاعي في هذا البيت، وبين جدرانه العالية التي تحجب كلّ العالم الخارجي عن جماعة (الحريم) الموءودة فيه، انسحقت طفولتي وصباي وجزء غير قليل من شبابي"[17]

8- "وبدأ يتكثف لديّ الشعور الساحق بالظلم... كان الانتحار هو الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أمارس من خلاله حريتي الشخصية المستلبة. كنت أريد التعبير عن تمردي عليهم بالانتحار.. الانتحار هو الوسيلة الوحيدة، هو إمكانيتي الوحيدة للانتقام من ظلم الأهل"[18].

9- "أمّا من الناحية الأخرى، فقد تعوّدت على الانكفاء على النفس والغياب داخل الذات. رحت أتحصن بالعزلة. كنت مع العائلة، ولكن حضوري كان في الواقع غياباً إلى أبعد حدود الغياب. كان لي عالمي الخاص الذي لا يمكنهم اقتحامه، ولقد ظلّ هذا العالم موصودًا أمامهم ولم أسمح لأحد باكتشافه"[19]

10- "ثم أصبح أنا نفسي غريبة عن نفسي، وأظلّ أكرر في تفكيري الصامت هذا السؤال: من أنا؟ من أنا؟ وأردد اسمي في تفكيري عدة مرات، ولكن اسمي كان يبدو لي غريبًا عنيّ ولا يدلّ على أي شيء. وهنا كانت تنقطع صلتي باسمي وبنفسي وبكلّ ما حولي، وأغرق في حالة غريبة جدًا من اللاحضور واللاشيئية"[20]

---

[14]- نفسه، ص: 20.
[15]- نفسه، ص: 23-24.
[16]- نفسه، ص: 28.
[17]- نفسه، ص: 40.
[18]- نفسه، ص: 57-58.
[19]- نفسه، ص: 58.
[20]- نفسه، ص: 59.

11- "وأُصبت بمرض بغض السياسة... إذا لم أكن متحررة اجتماعيًا.. فكيف أستطيع أن أكافح بقلمي من أجل التحرر السياسي أو العقائدي أو الوطني؟ وظلّ يعوزني الاختمار السياسي، كما كنت أفتقر إلى البعد الاجتماعي. لم يكن لديّ سوى ذلك البُعد الأدبي. وكان بُعدًا ناقصًا".[21]

ولا عجب أن تكون هذه الشروط الإنسانية، والظروف الخاصة هي التي تدفع بفدوى طوقان والمرأة العربية بوجه عام إلى تخوم اليأس والإحباط (حد الانتحار أحيانًا)! وهي نفسها التي تدفع المرأة العربية، كاتبة السيرة الذاتية، لمواجهة المجتمع.. وهذه هي (الرحلة الأصعب) حين يحتاج المرء إلى انتزاع اعتراف الجماعة له (بإنسانيته)! وبالاطلاع على رأي علماء الاجتماع ودراسي علم النفس والمتخصصين بالدراسات الثقافية، ودراسة الهويات نجد أن انسجام الفرد مع جماعته" إنما هي مسألة إدراك للذات.. وكأن الهوية ظاهرة فطرية خالصة (مثل تقرير هل كان الوقت ليلًا أو نهارًا) والواقع أننا جميعًا نقدم على اختيارات بصفة مستمرة.. إنّ حرية أن نصل إلى قرار فيما يخص ولاءاتنا وأولوياتنا بين الجماعات التي ننتمي إليها هي حرية مهمة بشكل خاص، وهي حرية نعترف بها، ونقدّرها، وندافع عنها"[22]؛ ومن هنا يتولد الصراع مع الذات ومع الآخر، من أجل الحفاظ على الهوية وصيانتها، وما يترتب على ذلك من انطلاق نحو حرية التعبير عن هذه الهوية واحتياجاتها، وفي مقدمة ذلك الاحتياجات العاطفية لدى المرأة، إذ تمكّنت فدوى طوقان من مواجهة محيطها الاجتماعي بموضوعات شعرها التي مثّلت نزعة تقدّمية، عبّرت من خلالها عن حاجاتها العاطفية، وقالت في هذا الشعر ما لم تتمكن نساء كثيرات من قوله في ستينيات القرن الماضي، ولا سيَّما وهنّ ضمن إطار اجتماعي محافظ، ومجتمع ذكوري سلطوي لا يسمح للمرأة بأن تعبّر عن مكنوناتها العاطفية في العادة، لكن فدوى استطاعت أن" تعيد تصحيح الموقف الاجتماعي المتخلف من قضايا الحب والفن والحرية عند المرأة، وأن تعيد تصحيح التنظيرات الحداثية التي تمجد فتح ملفات النفس البشرية والمزيد من الانفتاح على ذات الفنان، ولكنها في الآن ذاته تزدري النزوع العاطفي في النص النسائي بصفة خاصة. وفي خمسينيات القرن الماضي لم يكن سهلًا على شاعرة محاطة بهذه القيود كلّها أن تضرع هكذا:

---

[21]- نفسه، ص: 133-134.

[22]- صن، أمارتيا: الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ترجمة: سحر توفيق، عالم المعرفة، ع(352)، الكويت، 2008، ص: 21.

تتفجر
وأغانينا ستخضرّ على الحب وتزهر
وستنهل عطاءً
وثراءً
وخصوبة
أعطنا حبًا فنبني العالم المنهار فينا
من جديد
ونعيد
فرحة الخصب لدنيانا الجديبة .

ومن المدهش أن بعض النقاد العرب أخذوا على فدوى طوقان نزوعها العاطفي هذا"[23]

- **النزوع العاطفي وصناعة العزلة:**

مما يعزز أن نصف صوت فدوى في سيرتها الذاتية بالصوت الصعب، كرحلتها تمامًا، فهؤلاء النقاد إن هم إلا جزء من البناء الاجتماعي، وقطعة من هذا التكوين الثقافي الذي يمارس القمع على كل صوت تصدره المرأة، ويصر على إحاطتها بأسوار العيب، وأقنعة التحريم، وعباءَات الرفض الاجتماعي لأي صوت نسوي يقتحم دوائر الذكورة، ويخلخل بنى الثقافة ويهزها من الجذور. لكن فدوى لم تخضع تمامًا لهذه المنظومة غير العادلة، وقد أشارت مرارًا وتكرارًا، في سيرتها الذاتية إلى شهوة الانعتاق... الانعتاق من عفن المجتمع، وقيوده المصطنعة، فتصنع الأمل حينًا، وتصطدم بالألم حينًا آخر، لكنها تصر على المضي قدمًا، لتمارس حقها في اختبار (الحياة) بحلوها ومرّها، ولعل هذا المقطع يؤكد هذا كلّه:" حين خرجت إلى الحياة كنت عزلاء من سلاح الخبرة ومعرفة الناس، فكانت المواجهة متعبة، صعبة يعوزها التكافؤ. إنّ الكتب وحدها لا تكفي كمصدر لمعرفة الحياة وما في العلاقات البشرية من تعقيد وتصادم.. علينا أن نحيا في الحياة ذاتها، فتجاربنا الخاصة تظل هي الينبوع الأصلي لتلك المعرفة.

المشاعر والأفكار المعزولة عن أرض الناس والواقع.. الحس الاجتماعي العاجر عن النمو الحقيقي بسبب كُساحه المزمن.. هذا كله فوجئ بالناس والحياة المتحركة وراء عالم(الحريم) المعزول، وجدتني أقف حائرة مبلبلة: الحياة الاجتماعية ومعطياتها من

[23]– حديدي، صبحي: فدوى طوقان والريادة النسوية، ضمن: كتاب جرش: فدوى طوقان بين قيد المرأة الشرقية وفضاء النص، مهرجان جرش، 2000، ص: 21.

طرف، وأنا في طرف آخر، وكان الأمر باعثًا على الدهشة والخيبة والتأمل.. ثم وجدت نزعتي الرومانتيكية مبررها لتسحبني من جديد إلى أعماق ذاتي.. وتأكد لي أن سعادتي لا تكون إلا في عزلتي.. تحققت من عجزي التام عن تحطيم عزلتي التي لم تعد الآن مفروضة عليّ من قبل الآخرين"[24]؛ بمعنى أن هذه العزلة هي هروب اختياري من عزلة اجتماعية قهرية فرضت عليها من المجتمع، وهو تلميح ذكي لإدانة هؤلاء الآخرين الذين حاصروها في (عزلة) قبل هروبها منها للعزلة الأخرى. لكنها تمكنت، وبوعي عميق منها، من تجاوز كثير من الحواجز، في الوقت المناسب، إذ "لم تعد تخشى كثيرًا هؤلاء الذكور الذين ينهزمون بلا هوادة أمام الأعداء مفرطين بشرف وطن، ولكنهم يتنافحون بضراوة لحماية شرف امرأة!!"[25]

وحتى تكتمل الصورة التي أود إيضاحها أعود إلى نص سابق في رحلة فدوى يضعنا أمام أبشع صور القسوة والتعسف الأسري الاجتماعي، الذي يمارسه المجتمع الذكوري على الفتاة/المرأة، وهو نص في غاية الألم لما له من علاقة بإنسانية الإنسان قبل كل شيء، تقول فدوى: "في عام 1939 حانت لي الفرصة لتعلم اللغة الإنجليزية وسمح أبي لي ولشقيقتي بأخذ دروس خصوصية لدى (فتاه) مسيحية، كانت قد تخرجت حديثًا من مدرسة (الفرندز) في رام الله. أخذنا الدرس الأول، ثم صدر قرار بالتوقف، فقد اعترض بعض أرباب العائلة على هذا الأمر (الناشز) حين علموا به، وكان أبي حريصًا على إرضائهم. لقد كانوا يرتدون الزي الأوروبي، ويتكلمون التركية والفرنسية والإنجليزية، ويأكلون بالشوكة والسكين، ويقعون في الحب، ثم يقفون بالمرصاد كلما حاولت إحدانا تحقيق إنسانيتها عن طريق التطور الطبيعي أو التطلع إلى الأفضل والأحسن، كانوا يمثلون–خير تمثيل– جمود الإنسان العربي وعجزه الكلي عن الاحتفاظ بشخصية واحدة غير مشطورة، ظلوا يمثّلون انقسام الإنسان العربي شطرين: نصف مع التطور والتجاوب مع روح العصر ومسايرة إيقاعات الحياة المعاصرة، ونصف مشلول الأقدام، مسكون بالأنانية المترسبة في نفس الرجل العربي بكل ما فيها من عنجهية شرقية، تلك العنجهية التي ظلّ يعامل الرجال بوحيها الإناث من ذوي قرباهم. وهكذا كان كل ما حولي يضغط عليّ، حتى جدران الدار الأثرية، كنت أحسها تجثم على صدري بكل ثقلها وشموخها.. كنت أقف دومًا موقفًا سلبيًا مستسلمًا، فما ملكت يومًا الصوت الجريء لأرفعه أمامهم

[24]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية، ص: 159.

[25]– أبو نضال، نزيه: حدائق الأثثى: دراسات نظرية وتطبيقية في الإبداع النسوي، دار أزمنة، عمّان، 2009، ص: 23.

بالاحتجاج "[26] وهذ ما ينطبق على ملايين الفتيات والنساء الأخريات ممن قضين حياتهن بمثل هذا العجز.. والخوف.. واللاإرادة .

إنّ هذا النص في سيرة فدوى طوقان (بيان نسوي) يعبر عن مكبوتات دفينة في أعماق المرأة العربية، ويعرّي واقع التناقض والنفاق والخداع الاجتماعي الذي تستغل فيه المرأة على أنها كائن ثانٍ، مقابل الرجل (الكائن الأول)، وبكل أسف أوضحت فدوى طوقان عجزها –وهو عجز المرأة العربية في الوقت ذاته– عن المواجهة عندما كانت تعيش ذلك الواقع، وما هذا الصوت الذي نسمعه قادمًا من أعماق سيرتها الذاتية إلا أنه صوت متأخر، صدر عن صاحبته بعد أن انقضت سنوات عديدة على التجربة ذاتها، فهي تعلق بهذا النقد الاجتماعي بعد أن تركت خلفها إرثا مرًّا من التعامل المتعسف مع المرأة، وقد صار بوسعها في هذه المرحلة اللاحقة أن تدرك كنه ذلك، وأن تقيّم المرحلة تقييمًا صحيحًا

- **الوعي النسوي.. والنقد النسوي:**

إنّ مثل هذه المشاهد واللقطات في السيرة الذاتية للمرأة العربية تدلل على وعي حضاري وثقافي بدأ يتأسس لدى المرأة ويكوّن ثقافة مغايرة، بل يعيد صياغة (الخطاب) وشكله، إذ يوضح الناقد والمفكر الفرنسي ميشيل فوكو كيف يعرف الإنسان، ابن أي مجتمع كان، "أنه ليس لدينا الحق في أن نقول كل شيء، هناك الموضوع الذي لا يجوز الحديث عنه، وهناك الطقوس الخاصة بكل ظرف، وحق الامتياز أو الخصوصية الممنوح للذات المتحدثة، تلك هي لعبة إجراءَات ممارسة الخطاب"[27] وإجراءَات رفضه أو قبوله.

إنّ السيرة الذاتية النسوية تسهم في تأسيس خطاب اجتماعي مغاير، خطاب يقوم على نقد الآخر وبيان تناقضاته، ويرسي قواعد نقدية تخلخل سلطة المجتمع البطريركي/الأبوي، وتفضح ميراثه، وهذا الميراث المكوّن من "انثروبولوجيا التفرقة الإنسانية، تراكم عبر أزمنة طويلة تعايش فيها الأسطوري والأيديولوجي، مفرزًا سياسات جنسانية تعطي أحد الجنسين حق الهيمنة على الجنس الآخر، اجتماعيًا وإيديولوجيًا ونفسيًا وثقافيًا، وهذه المنظومة الراسخة المتجذرة لا يمكن تفكيكها إلا بدخول الهوامش بخطاب أصيل، يأخذ مواقعه إلى حيز المنظومة المركزية هذه"[28]، حيث تعدُّ الكتابة الإبداعية النسوية، شعرًا، وسيرة ذاتية، ورواية، ومسرحا، وغير ذلك، أبرز مكونات هذا الخطاب ومؤسساته التي بدأت تأخذ مكانها، وشرعيتها، في جسد هذه المنظومة.

---

[26]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية، ص: 97.

[27]– فوكو، ميشل: نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، ط1، دار التنوير، بيروت،1984، ص: 9.

[28]– دودين، رفقة: خطاب الرواية النسوية العربية المعاصرة، وزارة الثقافة، عمان، 2000، ص: 10–11.

سيرة فدوى طوقان (رحلة جبلية... رحلة صعبة) قرعت ناقوس الوعي النسوي، وحركت المياه الراكدة، صحيح أنها سيرة مكتوبة بحذر، وبكثير من العناية والانتباه، كي لا تصطدم بالمنظومة المركزية المشار إليها آنفا، لكنها مع ذلك أحدثت هزة ما، وخلخلة للخطاب الاجتماعي برمته، مع الحفاظ على مسافة المصالحة مع الإرث الجماعي، والأخذ بالحسبان ضرورة تجنب (الانفجار) الذي يحدث جرّاء تجاوز الخطوط الحمراء، كالذي حدث في سير ذاتية نسوية أخرى .وهنا تقودنا آراء فدوى في سيرتها إلى تطبيق رهانات النقد النسوي (المتعقل) على هذه السيرة، وتنأى بنا عن رعونة هذا النقد وجنوحاته التي يبالغ أصحابها بها كثيرًا أحيانًا، فيما يخص فهمهم لنظرية النقد النسوي على أنها نمط من أنماط الرفض والنقض والتحطيم بلا هوادة، حين يسعى مؤيدو ذلك لاقتناص لحظات مأزومة فيما تنتهي إليه مصائر البطلات الجانحات اللائي يذهب بهن العصيان إلى الموت أو الانتحار أو الجنون.. ولئن كانت وظيفة النقد المجتهد، أي نقد، التفكيك والخلخلة والنقض، من منظور الهدم والبناء.. فمثل هذا النقد عاجز عن الهدم! فما بالك بالبناء! لأن النقد الذي يهدم؛ يقوم بذلك لأجل البناء، لكن النسوية المتطرفة، تفتقر إلى مثل هذه المنهجية بكل تأكيد، وهي دومًا باحثة عن الصدام والصراع، باحثة عن الشذوذ والابتذال الثقافي و الجنسي والفكري.. وغير ذلك، أما(النسوية المتعقلة) فهي التي تضع نصب عينيها التوازنات والتفاعلات المفضية إلى ما أشير إليه سابقًا بمشاركة الهامش للمتن، واندغامهما معًا بمنظومة حياتية اجتماعية مشتركة، تخلو من هيمنة طرف على آخر، أو خضوع طرف لآخر .

إننا عندما نوظّف النقد النسوي في محاكمة نصوص نسوية، كنص فدوى طوقان (رحلة جبلية.. رحلة صعبة) وغيره، يجب أن نكون حذرين من مقولات هذا النقد ونظريته، فهي مقولات نبتت أصلًا في بيئة اجتماعية وثقافية مغايرة لبيئتنا العربية، في سياقات عديدة. وهو مدفوع بتراكمات قهرية تاريخية مارستها المجتمعات الغربية على المرأة بقسوة واستبعاد غريبين، في الوقت الذي كان فيه الإسلام ولا يزال، يمنح المرأة حقوقها وهويتها وفق نظام قيمي وتشريعي واضح التفاصيل والسمات، بصرف النظر عن ممارسات المجتمع، إذ ثمة أمثلة ونماذج قهرية لا تقل عنفًا عن التراكمات المتسلطة في المجتمعات الغربية المشار إليها سابقا. هذا من جانب، ومن جانب آخر ينبغي للنقد النسوي أن يتخلص من قناعاته المرتكزة على ذلك الإرث العنيف تجاه المرأة، أو من جزء منه على الأقل، وأن يأخذ بالحسبان ما حققته المرأة في العصور الحديثة وما قطعته من مسافات لا يستهان بها في إثبات الذات والهوية؟ وهو ما يدركه كبار النقاد، ويتساءلون

عن وضعه في نظرية النقد النسوي، فها هو حسام الخطيب يعى ذلك بقوله: "إننا مع تطور الحياة الاجتماعية نجد أن المرأة بدأت تأخذ حقوقها، وبدأ المجتمع يصغي لها، ومن ثمَّ بقي أن تتخلّص في ذاتها من(التابوه) الذي تراكم عبر العصور.. وأعتقد أن المرأة ستقدم لنا نكهة جديدة في الأدب، غير متعلقة فقط بتجربتها النوعية الخاصة بوصفها امرأة، وهذه تجربة مهمة جدًا، ويجب أن تدخل عالم الكتابة، ولكن أيضًا متعلقة بتجربة المجتمع العربي الحديث والإنسان العربي الحديث للدخول في عصر جديد.. عصر الحرية، وعصر الإبداع "[29]؛ وهذان الخطّان يسيران معا بالتوازي في سيرة فدوى طوقان (فتجربتها النوعية الخاصة بوصفها امرأة، وتجربة المجتمع الحديث وتحولات الثقافة العربية في القرن العشرين) احتلتا مساحة واسعة في (رحلة فدوى) ليخرج قارئ هذه الرحلة بخلاصة تعني لنا احتجاج فدوى على عقلية تاريخية كان لا بد أن تتغير. تقول في بداية السيرة –وكأنها ترسم دائرة تجعل نقطة البداية فيها هي نقطة النهاية نفسها–: "لم أفتح خزانة حياتي كلها، فليس من الضروري أن ننبش كل الخصوصيات. هناك أشياء عزيزة ونفيسة، ونؤثر أن نبقيها كامنة في زاوية من أرواحنا بعيدة عن العيون المتطفلة، فلا بدّ من إبقاء الغلالة مسدلة على بعض جوانب هذه الروح، صونًا لها من الابتذال. ما كشفت عنه هو الجانب الكفاحي الذي ذكرت قبل قليل، كيف استطعت، في حدود ظروفي وقدراتي، أن أتخطى ما كان يستحيل تخطّيه لولا الإرادة والرغبة الحقيقية في السعي وراء الأفضل والأحسن، ثم إصراري على أن أعطي حياتي معنى وقيمة أفضل مما كان مخططًا لها.. القالب الفولاذي الذي يضعنا فيه الأهل ولا يسمحون لنا بالخروج عليه.. القواعد المألوفة التي يصعب كسرها، التقاليد الخالية من العقل، التي تضع البنت في قمقم التفاهة، كنت أتوق توقًا مستمرًا إلى الانطلاق خارج مناخ الزمان والمكان، والزمان هو زمان القهر والكبت والذوبان في اللاشيئية.. والمكان هو سجن الدار"[30].

- **الهوية بين الذات والموضوع:**

هذا كلّه الذي تبوح به فدوى، على صعيد القضية الشخصية، قضية (الذات)، (الهوية): أن أكون أو لا أكون. ولكن ينبغي أن نتساءَل هنا: كيف سارت الأمور على صعيد القضية العامة، قضية الوطن: فلسطين؟.

---

[29]– هذا النص لحسام الخطيب من ندوة في قناة الجزيرة، بتاريخ 2002/2/18 على موقع WWW.aLJAZEERA.NET.

[30]– طوقان، فدوى: رحلة جبلية، ص: 10.

فقد تعايشت فدوى مع قضيتها الوطنية كإنسانة أولًا، وشاعرة ثانيًا. تروي لنا معاناة الإنسان الفلسطيني من قهر الاحتلال، وكيف واجهته المرأة وواجهه الرجل بالمرارة نفسها، تروي لنا بعد ثورة 1936، يومًا "بقيت صورته حية في الذاكرة بتفاصيلها كلّها. استيقظت وأخواني على طرقات أحذية الجنود الثقيلة. كانوا يقفون وسط الغرفة في غبش الهزيع الأخير من الليل، هببنا من الأسرّة، وطلبوا إلينا المغادرة فورًا، لم يسمح لنا بتغيير ملابسنا، خطفنا معاطفنا من الخزانة بسرعة، ووضعنا أغطية رؤوسنا كيفما اتفق، وخرجنا إلى السوق مع بقية الرجال والنساء والأطفال في حيّنا –حي الياسمينة– وبحسب أوامر الجيش سار الرجال في طريق، وسارت النساء في طريق آخر، كان بين النساء نفساء في يومها العاشر، تسكن بجوارنا، رأيتها وهي ترفع وجهها المحجب إلى أعلى فيبدو عنقها الأبيض، وبعض خصل سالفيها الحمراء، قالت وهم يتحسسون لفائف المولود الجديد: (ربي يكسر جاهكم ويرمل نسوانكم) قالتها بلهجة نابلسية أصلية، ناطقة الميم نونًا كما في اللهجة العامية، أما عمتي الشيخة فكانت تحت وطأة نزلة صدرية حادة، ولا تقدر على السير، فحملها جارنا الدحدوح، بائع الخضار على ظهره ومشى في موكب النسوة.. إن منظر الشيوخ والطاعنين في السن في مثل هذه المواقف يثير في النفس من المشاعر المرّة الحزينة ما لا يثيره الفتية والشبّان.. ورأيت في صف الرجال رجالًا عُرفوا بالشدة والنزق والعنجهية، فشعرت بتناقض وجودهم في المشهد الذليل"[31]

ولعل هذا المشهد الذي تغلغل في أعماق روح فدوى، و ظلّت تتذكره سنوات عديدة، يشير إلى عمق إحساسها بحزن الجماعة، وحساسيتها الفائقة لما يحدث من حولها، إذ لم يمر هذا المشهد، وما تعلق به أمام فدوى مرورًا عابرًا، بل حفر في أعماقها علامة قاتمة لا يمكن أن تتمحي على مر الأيام.

وكما مثّلت (رحلة جبلية... رحلة صعبة) سيرة الذات والروح، مثّلت أيضًا الحكايات البطولية، وأخبار العنف والموت الاعتقالات والنفي، والخيانات والمظاهرات، وكانت تعلق مؤكدة أنّ بكاءَها مردّه عجزها عن الاندماج في هذه المظاهرات والمشاركة الفعلية في الالتحام بالجماهير الثائرة" فالاحتلال الإسرائيلي أرجع إليّ الإحساس بنفسي ككائن اجتماعي، وفي ظل الاحتلال فقط، حين رحت ألتقي بالجماهير في قراءاتي الشعرية، عرفت القيمة والمعنى الحقيقي للشعر الذي يتعتق ويتخمر في دنان الشعب"[32]

[31]– نفسه، ص: 106.
[32]– نفسه، ص: 109.

وعرفت فدوى أيضًا أن سيرتها الذاتية لا يمكن أن تقف عند حدود كونها امرأة، ذاتا، مفعمة بالمشاعر والعواطف، بل لا بد لهذه السيرة من الكشف عن وجه آخر لصاحبتها، الوجه الوطني الذي دعاها لتحبّر صفحات عديدة من سيرتها في الحديث عن جرائم الاحتلال، والمقاومة الوطنية، فعلًا وكلمة.

وهذا ما ينقلنا إلى الجزء الثاني من سيرتها الذاتية، وهو ما أسمته فدوى بـ (الرحلة الأصعب) فسوف نقف على عمل سير– ذاتي يجمع بين التأريخ والأدب، فهذا الجزء من سيرتها الذاتية الصادر عام 1993 يرصد المعاناة الجماعية التي عاشها شعب فلسطين جرّاء الاحتلال، ومحاولات الخلاص والحروب وما جرّه كل ذلك من معاناة مادية ونفسية على صاحبة السيرة، التي طالما أكدت تشبثها بالوطن، وعدم رغبتها في اختيار الهروب، لتعكس واحدة من صور المرأة العربية المبدعة المناضلة الصامدة، التي جهدت على أن تقوّي أواصر المودة والتواصل مع مبدعي الأرض المحتلة، شعراءً وكتّابًا، وهي بذا تمثّل دور الأم التي تجتهد في لملمة شتات أسرتها، الذين يعملون على تثبيت هوية الشعب، وإذكاء روح التضحية في جماهير الأرض المحتلة. فعملت فدوى طوقان على التواصل مع محمود درويش، وتوفيق زيّاد، وسالم جبران، وغيرهم. وقامت بنشاط أدبي ملحوظ، على صفحات مجلات وصحف كان لها دور نضالي في نشر نصوص المقاومة وأدبها، على نطاق عربي واسع. وربما كانت المسألة الإبداعية النضالية هي (غرفة فدوى طوقان) في هذه السيرة على حدّ تعبير فرجينيا وولف: "إذا أرادت امرأة الكتابة فعليها أن تمتلك غرفة تخصها وحدها"[33]؛ ولنا أن نؤوّل هذه الغرفة تأويلات مختلفة، ليس آخرها أن هذه السيرة (الرحلة الأصعب) هي درب الحرية التي استطاعت فدوى أنْ تؤثثها بأصوات إبداعية نضالية، لها ولأصدقائها المبدعين، بعد أن رزحت مدينتها ومدن فلسطينية أخرى تحت عجلات المجنزرات الإسرائيلية: "كان وجه القاص توفيق فياض من أوائل الوجوه التي هلّت عليّ في ذلك الحين، وانعقدت بيني وبينهم صلة مودة وصداقة. وكان حينئذ يقاسم محمود درويش وسميح القاسم السكنى في البيت نفسه، وكان ثلاثتهم يتقاسمون الجوع والحياة الصعبة.. كان توفيق يوافيني بجريدة الاتحاد، وبمجلتي الجديد والغد، وكانت هذه الصحف السياسية التقدمية محظورًا توزيعها في الضفة والقطاع.. ومن خلال هذه الصحف تعرفت على إيميل حبيبي، والدكتور إميل توما، والأستاذ صليبا خميس، وعلي عاشور، وسواهم من رسل القوة وأعداء الضعف والانهيار.."[34]

[33]– وولف، فرجينيا: غرفة تخص المرء وحده، ترجمة: سميّة رمضان، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2008، ص: 24.
[34]– طوقان، فدوى: الرحلة الأصعب، ط1، دار الشروق، عمان، 1993، ص: 17.

ولم تحصر فدوى ثقافتها ومعرفتها واطلاعها على مثقفي الأرض المحتلة وأدبائها فحسب، إنما انطلقت تبحث عن الفكر والفن في كل مكان، فسعت للحصول على نسخ من مجلة الآداب البيروتية، ومجلة مواقف التي كان يصدرها أدونيس. فقد كانت (المعرفة) بتجلياتها كلّها، هي المهمة المقدسة لفدوى في مواجهة واقع مرير تعيشه المرأة المبدعة الفلسطينية، إذ مثلت (المعرفة) منقذًا يشدها وينتشلها من مرارتين: مرارة قمع الاحتلال، ومرارة سلطة المجتمع الأبوي الذكوري التقليدي بأعرافه وأفكاره، زد على ذلك كله أنّ فدوى كانت تتلوى بمرارة أخرى إضافية، مرارة المسؤولية الأدبية تجاه وطنها وجمهورها الشعري، حتى الصهاينة واليهود أنفسهم كانوا يقرؤونها، ويتابعون أشعارها: "في خطابه في قصر الثقافة، قرأ دايان بعض أشعارها واقترح إقامة أمسية شعرية لها في المكان نفسه.. وكتبت الصحافة الإسرائيلية عن كل حركات فدوى وسكناتها، وكانت وكالة عتيم تنشر في كل مرة خبر عبورها الجسر، نُشرت قصائدها في الصفحة الأدبية في جريدة هآرتس، ونشرت عن وساطتها لأجل السجناء، وضد نسف البيوت... أوقفوها عند الجسر، وأجروا تفتيشًا في دارها"[35]

ومع ذلك ظلّت فدوى تقاوم الاحتلال بقلمها وحواراتها، وتصريحاتها، تقاوم بمعرفتها، وشعرها، وثقافتها، تقاوم بصداقاتها مع العديد من أدباء العالم الأحرار.. وفي مقدمتهم عدد من الأدباء اليهود الذين كان لهم موقف رافض من الاحتلال. ومن اقتلاع شعب كامل من جذوره. هذا كله من (خلال صوتها الخاص) الذي نظر إليه بعض الباحثين عبر" تطور خطاب فدوى طوقان الأدبي في سياق التجربة الشخصية، وفي سياق الحياة العربية عامة. من التقليد والمحاكاة إلى الرفض والخروج عن السائد، وصولًا إلى تحقيق الصوت الخاص. وهذا يؤكد ما ذهب إليه العرب و المستشرقون، من أنّ فدوى طوقان كانت مثالًا للمرأة المستقلة التي حققت خصوصيتها في الأدب العربي، وشكّلت نبراسًا لنساء العرب اللاتي جئن بعدها أو عاصرنها في تجربتها النسوية "[36] التي مكنتها جاهدة أن تحقق وجودها، وكينونتها شعرًا وسردًا.

ونظرًا إلى أننا في سياق السرد، السرد السير–ذاتي في الرحلة الأصعب، فإننا نستطيع تأويل كلمة (الأصعب) هنا بردّها إلى أمرين، أولهما فاجعة الإحساس بفقد الوطن، وكابوس العيش بعقدة نقص نابعة من وطن مسروق، وثانيهما إدراك الشاعرة أنها

[35]– طوقان، فدوى: الرحلة الأصعب، ص: 199، والاقتباس من الفصل المكتوب بقلم يغئال سرينه.

[36]– البقمي، فهد: الأدب النسوي المعاصر: فدوى طوقان أنموذجًا، مجلة دراسات، العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، عمّان، مج(41)، ملحق(1)، 2014، ص: 635.

الآن– في هذا الجزء من السيرة– تخرج من دائرة الذات الضيقة إلى الدائرة الأوسع، دائرة الذات المؤثرة، المحرّكة، بشهادة موشي دايان وزير الدفاع الإسرائيلي نفسه، الذي أشار إلى "أن قصيدة من قصائدها تكفي لخلق عشرة من رجال المقاومة "[37]

وقد استطاعت فدوى انتزاع مثل هذه الشهادة من قيادات يهودية، من اليمين واليسار داخل الكيان الصهيوني وخارجه، وكان هذا الانتصار بسبب منحاها الإنساني في المقاومة، الذي يرتكز إلى فكر عقلاني وانفتاح كوني أشبه بفكر الزعيم الهندي المهاتما غاندي، أو الزعيم الجنوب– أفريقي المناضل نلسون مانديلا.

فمثلما حققت فدوى طوقان حضورًا فكريًا وأدبيًا محليًا وعربيًا، حققت أيضًا حضورًا عالميًا، جلب لها جماهير وصداقات من أرجاء العالم، اعترافًا بحسها الوطني والإنساني الكامن في أدبها، أو بالأحرى شعرها الذي انسجم مع ما أسماه صلاح فضل في كلامه عنها بأنها حققت "مفهوم الشعر الحديث الذي يتأسس على قطبي التعبير والتوصيل"[38] وهما جانبا الفن والفكر باتساقهما وتلازمهما بما يشبه تلازم وجهي العملة الواحدة.

انطلقت فدوى طوقان من عزلتها المكانية والنفسية في بيت الأهل بنابلس نحو آفاق أرحب وأمكنة أوسع، فكانت عمان ومدن عربية أخرى ملاذها، وظلّ إبداعها في هذه الأماكن كلّها إبداعًا أصيلًا، أصيلًا في بساطته وصدقه، ومستواه الفني ... وما أرسته فيه من حبها للحياة، رغم انكساراتها، حتى لنجد من النقاد من يرى:" أن اللغة التي تسيطر على قاموس فدوى الشعرى هي لغة الحب، بكل ما تعنيه من حنان أنثوي، وقد بدت هذه اللغة ممتزجة بعناصر الطبيعة، بل شكلت أحيانًا معادلًا فنيًا لما يضطرب في داخلها من مشاعر لا تستطيع التصريح بها بسبب الحياء الذي تربت الفتاة الشرقية عليه، لهذا بدت لغة الحب لديها لغة علوية مسّيجة بالحياء الشرقي"[39]

مما يدفعنا لفهم عقدها، وخصوصية تجربتها، وهو ما يدفعنا كذلك لفهم تحولها في الجزء الثاني من سيرتها الذاتية من الخاص إلى العام، من الشخصي والذاتي إلى الإبداعي والعملي.

فمع أنها في (رحلة جبلية.. رحلة صعبة) سجلت كثيرًا من المؤاخذات والإدانات والاعتراضات على واقع المرأة العربية الشرقية، ابنة المجتمع الفلسطيني، أو المجتمع

[37]– طوقان، فدوى: الرحلة الأصعب، ص: 39.

[38]– فضل، صلاح: أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء، القاهرة، 1998، ص: 9.

[39]– حمود، ماجدة: اللغة الشعرية لدى فدوى طوقان، مجلة علامات، النادي الأدبي، مج(7)، ج(28)، جدة، يونيو 1998، ص: 200.

العربي، على وجه العموم، مع هذا كله إلّا أنها لم تتمكن من تسجيل درجة عالية من البوح عن حياتها العاطفية والشخصية بسبب قيود كثيرة، وآثرت في (الرحلة الأصعب) أن تتحدث عن إبداعها وتجربتها الأدبية وما أحاط بها، حتى ذهب بعض الباحثين لتسميتها "بسيرة الأدب والمقاومة والصمود"[40].

حيث يدرج هذه السيرة "ضمن جنس السيرة الذاتية الذهنية؛ لأنها ترصد حياتها الإبداعية والثقافية والفكرية، ومسارها الحيوي في المقاومة والكفاح والنضال المستميت... ويمتزج في السيرة الجانبان: التاريخي والأدبي، أو الجانب السياسي والجانب الإبداعي. ويعني هذا أن سيرة فدوى طوقان نص مفتوح على الخطابات الفوقية والواقع المرجعي"[41] وهذا يعني أيضا أنه نص صالح (للتعليم) أي نص يعلّم، ويمكن أن يعد (شهادة إبداعية) يفيد منها الأجيال فيما بعد.

[40]- انظر: حمداوي، جميل: الرحلة الأصعب لفدوى طوقان، من موقع (WWW.diwanalarab.com)
[41]- نفسه.

**المصادر والمراجع :**

1. أبو نضال، نزيه: حدائق الأنثي: دراسات نظرية وتطبيقية في الإبداع النسوي، دار أزمنة، عمّان، 2009.
2. البقمي، فهد: الأدب النسوي المعاصر: فدوى طوقان أنموذجًا، مجلة دراسات، العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجامعة الأردنية، مج(41)، ملحق(1)، عمّان، 2014.
3. حديدي، صبحي: الحداثة العاطفية: فدوى طوقان والريادة النسوية في الشعر العربي الحديث. ضمن: كتاب جرش: فدوى طوقان بين قيد المرأة الشرقية وفضاء النص، مهرجان جرش، 2000.
4. حمداوي، جميل: الرحلة الأصعب لفدوى طوقان، من موقع
WWW.diwanalarab.com
5. حمود، ماجدة: اللغة الشعرية لدى فدوى طوقان، مجلة علامات، النادي الأدبي، ج(28)، مج(7)، جدة، يونيو 1998.
6. دودين، رفقة: خطاب الرواية النسوية العربية المعاصرة، وزارة الثقافة، عمان، 2000.
7. صن، أمارتيا: الهوية والعنف: وهم المصير الحتمي، ترجمة: سحر توفيق، عالم المعرفة، ع(352)، الكويت، 2008.
8. طوقان، فدوى: الرحلة الأصعب، ط1، دار الشروق، عمان، 1993.
9. طوقان، فدوى: رحلة جبلية.. رحلة صعبة (سيرة ذاتية)، ط2، دار الشروق، عمّان، 1985.
10. عبد الخالق، غسان: تأويل الكلام: دراسات تطبيقية في الشعر وأحوال الشعراء، ط1، دار أزمنة، عمان، 2007.
11. فضل، صلاح: أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء، القاهرة، 1998.
12. فوكو، ميشيل: نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، ط1، دار التنوير، بيروت، 1984.
13. لوجون، فيليب: السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2012.
14. مقدم، يسرى: النقد النسوي، مجلة علامات، ع(27)، المغرب، 2007.
15. موروا، أندريه: أوجه السيرة، ترجمة: ناجي الحديثي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق، 1986.
16. وولف، فرجينيا: غرفة تخص المرء وحده، ترجمة: سميّة رمضان، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2008.